

31- د. محمد محمود الصبياد: أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية. ص 317-318.

32- حيدر بامات. ص 106 - 108.

33- هونكه: ص 32. ويمكن الرجوع الى مقالنا الجامع الموسع: ازدهار الحضارة والفكر الاسلاميين في الغرب الاسلامي ودورهما في نهضة أوروبا ويقظتها. مجلة الأصالة، عدد 75، 76، 77، 78. (الجزائر - نوفمبر، ديسمبر 1979، جانفي، فيفري 1980) ص 113-144.

الدكتورة هناء الدويدري

قرطبة مدينة وتراث

كلية الآداب - قسم اللغة العربية
جامعة دمشق
سوريا

قرطبة مدينة وتراث

يسعدني أن ألتقي هذا الحفل الكريم، فاللقاء بالإخوة العلماء، قادة الفكر والثقافة، مسيرة ومفخرة، يذكر بتواصل العلماء أيام الدولة الموحدة في ظل العروبة والإسلام، ويشير الأمانى نحو مسيرة مستقبلية تضطلع بها جامعاتنا ومعاهدنا ومؤسساتنا التربوية. في أرجاء وطننا الكبير، لتزويد الأجيال بالوعي التاريخي الذي يمنح الماضي وزنه الحقيقي، وبالقدره على استيعاب منطق التقدم وحمل الرسالة بصدق وإخلاص.

وانني إذ أشكر للأستاذ الدكتور بكري، عبد الكريم، مدير المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية بوهران، وللمنظمي هذا اللقاء، إتاحة الفرصة للقدوم إلى هذا القطر الخير العزيز على كل عربي، أمل أن تسهم الجلسات في توحيد النظرات والرؤى، وإعادة الوضع الطبيعي لأمتنا التي قادت الركب الحضاري في البلاد التي طالعها الفتح العربي وفي مقدمتها إسبانية التي دام حكم العرب المسلمين فيها ثمانية قرون من سنة 92-898هـ/ 711-1492م، كانت هي العصر الذهبي في تاريخها، ففي أعقاب الفتح امتزج الوافدون من عرب وبربر بالأسكان الأصليين، واعتنق كثير من السكان الدين الإسلامي، ونتج عن زواج العرب بالاسبانيات: جيل جديد عرف باسم المولدين، وقد أصبحوا بمرور الزمن يؤلفون معظم سكان الأندلس (1)، أما الباقون، ومنهم أهل الذمة (2)، فقد عاشوا في ظل الدولة الفتية التي شاعت فيها العدالة الإنسانية فتكلم سكانها الإسبانية إلى جانب العربية (3)، واختلط فيها رنين الأجراس بأذان المؤذنين، وتجلت الحضارة العربية الإسلامية على مدى قرون بمختلف أنواع عطائها، فحملت إلى الناس الرقي والإسعاد، بعد أن تنافسوا في تحصيل الآداب والعلوم، وفي ترجمة كتب اليونان واللاتين، وأحيوا ميت الأرض، وعمرُوا أضخم حضارة الأندلس الكبرى، فارتبطت بسلسلة لامعة من الأسماء الشهيرة التي أضاعت أفاقها الأدبية والعلمية والسياسية، وكانت مشعلا لأقطار وأمم متعددة، وبمنشآت (4) زاهية (زهراء) - (زاهرة) غذاها الفن والرقية والجمال، ولاحت فيه أنوار الهداية الروحية والإشعاع الفكري منها المسجد الجامع (5) في نهاية جنوب غربي قرطبة على مقربة من القنطرة EL Puente المقامة على نهر الوادي الكبير Guadalquivir وقد نجا من حوادث الزمن وعادية المحن بعد

سقوط قرطبة في يد الإسبان سنة 633هـ / 1236م، ثم حول بعد الاسترداد La Reconquista إلى كنيسة قرطبة الجامعة أو الكاتدرائية La Catedral ، لكنه ظل معروفا باسم: La Mezquita Aljama وهو تحريف للمسجد الذي توالى على بنائه منذ سنة 170هـ / 786م خمسة حكام كان أولهم عبد الرحمن الأول (6) (الداخل) المولود في إحدى ضواحي دمشق سنة 113هـ / 730م، وقد أفلت من يد العباسيين في المشرق بعد أن دالت دولة الأمويين، فيم وجهه شطر المغرب الإسلامي، ونجح في تأسيس إمارة مروانية في الأندلس سنة 138هـ / 755م جعل عاصمتها قرطبة، وأمر ببناء المسجد الكبير فيها، وكان موضعه كنيسة قوطية وجلب إليها الرخام المموه من إسبانية، ومن القسطنطينية، ولكنه توفي قبل تمامه، فأكمل ابنه هشام الأول (173-180هـ / 789-796م) الجانب الرئيسي منه سنة 177هـ / 793م، وأضاف إليه منئذ مربعة الشكل.

ثم جاء عبد الرحمن الثاني (7) (الأوسط) (206-238هـ / 822-852م) فزاد فيه رواقين وبعده أنشأ ابنه الأمير محمد (238-272هـ / 852-886م) مقصورة فخمة، وفي عهد الأمير عبد الله (288هـ / 912م) أنشئ الساباط وهو الممر المسقوف الموصل من القصر إلى الجامع على مقربة من المحراب، ووسع الخليفة عبد الرحمن الثالث (8) الناصر (300-350هـ / 913-961م) صحن الجامع من جهة الشمال، فتهدمت المنئذ، فأنشأ عوضاً عنها منئذ، جديدة، ثم جاء ابنه الحكم المستنصر (350-366هـ / 961-976م) فأجرى الماء في الجامع، وأرسل إلى نقفور فوقاس Nicephor Phocas في بيزنطة وفدا لإحضار صانع إلى قرطبة مختص في الفسيفساء (9) ليشرف على زخرفة الجامع، كما ابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة، وأخرى للوعاظ والعاملين فيه، وكان عددهم ستين خادماً، عليهم قيم ينظر في أمورهم.

وقد خلد الشاعر ابن شخيص محمد بن مطرف (المتوفي في حدود سنة 400هـ) مآثر الحكم في هذا البناء الخالد فقال (10):

وقد خرمت بطون الأرض عن نطف	من أعذب الماء نحو البيت تجريها
وساحة المسجد الأعلى مكالمة	مكاتباً لليتامى في نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلام	نادتك يا خير تاليها وواعيها

وامتدت عملية التوسيع والإصلاح حتى زمن الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (ت392هـ/1003م) الذي زاد فيه زيادة كبيرة فصار يشغل مسطحا طوله مائة وثمانون مترا، وعرضه مائة وخمسة وثلاثون مترا بما في ذلك صحنه المكشوف الواقع في شماله، وقد أنشئت فيه النوافير، وغرست في جنباته ووسطه أشجار البرتقال والنارنج، فسمي فناء النارنج، وبالإسبانية: Patio de los Naranjos.

أما عمده الرخامية الوردية المجزعة بالأبيض وعددها ثلاثة وتسعون ومائتان وألف عمود (1293)، فيربط بينها صفان من العقود التي تقوم على مساند ملفوفة، وقد اصطففت بتناسق وتلاحق كأنها غابة كثيفة.

أما أبواب المسجد فقد ذكر المقرئ (11) - نقلا عن الإدريسي - أن عددها واحد وعشرون بابا، وقد صفحت بصفائح النحاس، وكسيت واجهاتها بالرسوم الهندسية والزخارف النباتية وهو ما يسمى "بفن التوريق" Ataurique، وفي كل باب منها حلقتان في غاية الإبداع.

أما المنبر (12) فصنع من الأبنوس الثمين. بعد الاسترداد عدلت أسقف الجامع على الطراز الكنسي (13)، إلا أن محاريبه المزينة بالآيات القرآنية، وبالنفوش والرسوم النباتية، وعقود اسلامية، بقيت ماثلة تدل على غنى قرطبة وتشهد ببهائها وتراثها العلمي.

فقد توسع المسلمون بعامة، والأندلسيون بخاصة، في فهم مهمة المسجد، فصار مصلى، ودارا للافتاء، ومدرسة، وجامعة، يرتاد مجالسه العلمية الراغبون في العلم والعلماء من أنحاء العالم الاسلامي يحملون عبء العلم وأمانة التعليم في جو تسوده الحرية الفكرية، والثقة والمحبة المتبادلة بين قطبي العملية التعليمية والتعليمية في تلك الحلقات العلمية، وقد سمي الدرس (حلقة) لأن الطلاب كانوا يتحلقون حول شيخهم، وكانت الحلقة تضيق وتتسع تبعا لعدد الطلاب الذين ينتظمون وفق نظام علمي وتربوي ينال فيه العالم كل مهابة وتقدير، وكانت خطبة الجمعة الدرس التربوي الأسبوعي لعامة المسلمين وخاصتهم، وقد توقع للمسلمون من العالم أن ينقد الحكام وينبه ضمائر الأحرار المقصرين: قيل إن الخليفة عبد الرحمن الناصر انقطع عن حضور صلاة الجمعة ثلاث مرات، لأنه كان مشغولا بالتشييد

والبناء، فجهر بالتعريض به قاضي الجماعة بقرطبة، وخطيب جامعها مئزر بن سعيد البلوطي (ت355هـ/966م)، فشكا الناصر ذلك إلى الحكم، فقال له الحكم: وما يمنعك من عزله، والاستبدال به؟ فقال الناصر: مثل ابن سعيد في فضله وورعه وعلمه يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد؟ هذا والله لا يكون. وهذا يدل على منزلة الفقيه العالم الذي كانت إليه من علمه وخلقه حصانة.

وفي المسجد الكبير أسس الناصر الجامعة التي ازدهرت في عهد ابنه الحكم المستنصر، فأم دوائر التدريس فيها، وهي دائرة الفلك والرياضيات، والطب، والعلوم الدينية والشرعية الطلاب من مسلمي ونصارى إسبانية، ومن بلدان أوروبية أخرى، ومن إفريقية وآسيا وصارت المنهل لمن نهل دارسا مقيما، أو مقتنبا مرتحلا.

ضمت قرطبة عدا الجامعة مكتبة حفظت التراث العربي الإسلامي، فبقي كالبحر المحيط الزاخر بنوادير المخطوطات، ونفائس الكتب التي كانت مزار اهتمام الأندلسيين واحترامهم لأنها أوعية المعرفة، ولأن مصدر الاهتمام بها نابع من حض الإسلام على طلب العلم، فالدين الحنيف يساعد بكلياته وجزئياته على البحث في أسرار الطبيعة، ويحض على اقتناء ثمرات المعارف بجميع أنواعها، وقد زود المسجد بخزائن كتب نافعة تعين المدرسين على التأليف والطلاب على الدراسة.

وقد أروع الحكام بإقتناء الكتب، كما فعل الحكم المستنصر الذي جمع من الكتب ما يصعب وصفه كثرة ونوعا، قيل إن مكتبته ضمت أربعمئة ألف مجلد، وبلغت عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعين مجلدا، في كل مجلد عشرون ورقة، وقد علق الحكم على أغلب صفحات الكتب.

والحكم المستنصر هو الذي بذل ألف دينار في مؤلف يلائم ذوق الأندلسيين وميلهم للشعر والموسيقى، وهو كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني ليرسل إليه نسخة منه قبل إخراجها في العراق، وقد أثر هذا الكتاب تأثيرا كبيرا في الأوساط الأدبية في حلقات النعمان كما درس في المعاهد العلمية التي كانت منتشرة في قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية والتي نقشت على أبوابها العبارة التالية التي تصف المثل العليا الإسلامية وهي: "العالم يقوم على أربعة أركان: معرفة الحكيم، وعدالة العظيم، وصلابة النقي،

وبسالة الشجاع، وقد جاءت المعرفة في هذه العبارة في المقدمة تعظيما للثقافة التي هي
الحاجة العليا للبشرية، ولعل شهرة قرطبة العلمية هي التي جذبت يارن ريشدو الذي تسجل
الملاحظة التالية: "إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه جملتها التي قرطبة حتى تنباع فيها،
وإذا مات مطرب أو مغن قرطبة وأريد بيع آلاته حملت إلى باشبيلية".
وافتنق مسيحيو إسبانية بالحضارة الإسلامية، باللغة العربية التي جعلها يقرؤونها
ويدرسونها حتى أن القاروا Alvaro كانوا قرطبة في القرن التاسع الميلادي شكوا من
انكباب أبناء دينه على مطالعة كتابات العرب، وأصر أصحاب عن الكتب المسيحية.
ولم يقتصر فضل الأندلسيين على ما قدموه إلى أوروبا، وسائر العالم من إبداعاتهم
الأدبية وإنجازاتهم العلمية في تلك البروج وإنما نقلوا إلى أوروبا حصيلتهم من كبراهنهم
من علوم المشرق، وفنونهم وآدابهم، وسائر معارفهم، والمعارف التي اقتبسوها عن الإغريق
والرومان وأضافوا إليها كثيرا مما ابتدعوه، فقد كانت الشعوب الأوروبية تهاني ضما فكريا
وتخلفا علميا، حتى إذا ما وجدت السراب حقيقة، وعائقة وفرة الموارد فيه، عيتت عن موارث
الأندلسيين، ما استطاعت فكان من جراء ذلك أن بزغ في أوروبا فجر تلك النقطة العلمية التي
لم يزل العالم الغربي يتمتع حتى اليوم بحسناتها ولا يزال أثر اللغة العربية - التي بقيت لدينا
من الدهر لغة العلم - ظاهرة في لغات الغرب، التي استعارت منها مفردات علمية وفنية هي
نتاج حتمي لغنى الثقافة والمعرفة في مشرق العالم الإسلامي، وغربيه، بعد أن اقتضت وحدة
اللغة في الدين والقدر التاريخي المشترك أن توجد بين المشرق والمغرب أو الصغر وروابط
شجع عليها الحكام، فقد كان كثير من أمراء الأندلس حياة العلم والأمراء المومنين في أن تجعل
قيل إن عبد الرحمن الثاني كان شغوفا بكل ما يتصل بعلم حتى الفلك والظواهر، وقد
أوفد إلى العراق قبل توليه الحكم عالما من قرطبة وهو عباس بن ناصح، متوخيا الأثر
العلمية المنقولة إلى العرب عبر اليونان والفرس، واستنسخها له، فقام نقل هذه العلوم فيما
بعد إلى أوروبا عبر الأندلس. يقال إن كان قرطبة في سنة 822م، وقد علمت من
وفي عهده، وتحديدًا في سنة 206/822م، قدم من مصر العنراق أبو الحسن علي بن
نافع (ت 243هـ/857م) الملقب بزمام (قيل لبطاوة)، وكان قد ظهر في بغداد، وأخذ
الغناء عن إسحاق الموصلي الذي لم يلبث أن جسد له وأنتج منه فطلب منه والامكان 050

بلاط الرشيد فصار زرياب إلى قرطبة، وهناك أتحف الناس بتجديداته ومبتكراته، وبمدرسته الموسيقية التي انتظم فيها أولاده وجواريه، فما أدخله على الموسيقى من تحسينات عدا الأنغام زيادة وتر خامس في العود واختراع مضربه من مقلب النسر بدلا من الخشب.

كما نقل إلى الأندلس أفانين حضارية انبعثت أصولها من المشرق منها أنه علم أهالي قرطبة تقديم الطعام من حيث الابتداء بالحساء، ثم تقديم اللحم وأنواع الطيور المتبلّة بالبهارات ثم الأطباق المحلاة بالعسل، ومعقود الفاكهة المعطر كما عرفهم بأنواع جديدة من الخضار مثل الهليون *Esparagus*، وقد انتقلت زراعته إلى أوروبا، وبرهن أن أقذاح الزجاج على المائدة أفضل من طاسات الذهب والفضة، وعلم الأندلسيين تصفيف الشعر وحسره إلى الوراء، وقد انتشر هذا التصنيف في أوروبا، وفي بلاطات الملوك بصورة خاصة.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط اشتهر أبو القاسم عباس بن فرناس (ت 284هـ/ 887م) الذي كان أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من فك بها كتاب العروض للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ)، وأول من احتال في تطيير نفسه وكسا نفسه الريش، ومد له جناحين وطار مسافة ثم وقع.

وقد كان ملوك الفرنجة مأخوذون بعلم الأطباء الأندلسيين، وكثيرا ما استعانوا بأطباء من قرطبة إذا ما دعت إلى ذلك حاجة.

فمن أطباء قرطبة: أبو القاسم خلف بن عباس المعروف بالزهراوي، نسبة إلى مدينة الزهراء (ت 500هـ/ 1106م) وقد سكن قرطبة وأمضى فيها حياته، كان من أمهر الجراحين، ألف كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف" وجعله في ثلاثين بابا، وقسمه قسمين:

جعل القسم الأول في الطب النظري، وأفرد الثاني للطب العلمي أو "الجراحة"، فأغنى الطب بأبحاثه الكثيرة وبخاصة فيما يتعلق بالأمراض التي تصيب الدم، وبتشوهات الفم وسقف الحنك، وقد ترجمت أبحاثه في الجراحة إلى اللاتينية.

وفي قرطبة ولد الطبيب الفيلسوف أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ولد سنة 520هـ/ 1126م وتوفي سنة 595هـ/ 1198م) وقد أتحف علم الطب بمؤلفه "الكليات في

الطب" الذي صار يدرس في جامعات أوروبا، وفيه أثبت أن الأمراض المعدية لا تصيب الإنسان مرتين، فالجدي مثلا يمنح الجسم حصانة مدى الحياة، كما أوضح بدقة وظيفة شبكة العين.

أما في مجال الفلسفة فقد انصرف إلى اظهار التوافق بين العقل والدين، وكانت فلسفته جسر اتصال بين فلسفة الإغريق وأوروبا عدة قرون، وكانت شروحه على أرسطو حجة لإبراز آرائه الشخصية وبلغ من شهرته في الغرب أن أعطي لقب "المعلم الثاني"، وصارت كتبه تدرس في جامعة باريس وسواها من معاهد العلم الأوروبية.

ومن علماء قرطبة أبو محمد علي بن سعيد بن حزم (ولد بقرطبة سنة 384هـ/ 993م وتوفي سنة 456هـ/ 1064م) كان أديبا وفقهيا وشاعرا وفيلسوفًا اهتم بنظريات المعرفة، وعقد لها في كتابه "الحل والنحل" فصلا خاصا، سوى الملاحظات المتفرقة في فصول مختلفة، وقد رأى أن للإنسان ست حواس تدرك النفس المحسوسات المادية بالحواس الخمس، أما الحاسة السادسة فهي علم النفس بالبداهات، ثم أنه يعتقد أن جميع أنواع المعرفة يجب أن تعتمد على الحواس التي تعتمد بدورها على ما حولها من المحسوسات، وهذه هي المشكلة التي يزعم مؤرخو الفلسفة الأوروبية أنها عرضت للفيلسوف الألماني كانت Kant (ت1804م) مع أنها عرضت لعالمنا ابن حزم قبل "كانت" بسبعة قرون ونصف قرن.

وابن حزم هذا تكلم في موضوع الحب العذري (الذي تكلم في المشرق ابن داود في كتاب "الزهرة") فالحب عند ابن حزم تألف روحاني وتعارف علوي يتجلى في جوهر النفس الصافي، ويقوم على "الاستحسان الروحاني" و"الامتزاج النفساني" كما يفهم من الحديث النبوي: (الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف).

فالتعارف الحق يفضي إلى العشق، "ومحبة العشق لا فناء لها الا الموت"، وقد سئل رجل من بني عذرة ممن الرجل؟ فقال: أنا من قوم اذا عشقوا ماتوا..

لقد أبدع ابن حزم في التحدث عن الحب في كتابه "طوق الحمامة في الألفة والألاف" الذي كتبه ردا على من طلب إليه أن يصنف كتابا في الحب وفنونه وأعراضه، وانتشر الكتاب، ونسج على منواله رئيس أساقفة هيتا خوان رويث Juan Ruiz فكتب "الحب للصالح" "libro de buen amor"، وقد وصل الحب العذري مستوى من النفاذ بني عليه

خير شعراء التروبادور، ومنه استقوا نبعاً من الحقائق النفسية التي عرفها ابن حزم.

يقول ابن حزم:

وددت لو أن القلب شق بمديّة وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري

فأصبحت فيه لا تخليّن غيره، إلى منقضى يوم القيامة والحشر

تعيشين فيه ما حييت فإن أمت، سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

ويقول:

محبة صدق لم تكن بنت سليعة ولا وريت حين ارتداد زنادها

لكن على مهل سرت وتوليت بطول امتزاج فاستقر عمادها

ويقول غيوم التاسع دي بواتيه (127م) أول شعراء التروبادور: "ما أسعد من يقع

في الحب، حتى إنني لأود أن أغمس نفسي في أعماق هذا السرور، ولما كنت أحب أن

أستعيد الفرج الكامل، أراني أخطب ود أكمل النساء، ليس ثمة امرؤ تدفعه قوة الرغبات بقادر

على أن يتصور بفكره وبأحلامه سروراً مثل سروري، ليس على الأرض شئ يوازي هذا

الطرب ومن شاء أن يتغنى به كما يستأهل، فلا بد أن تنقضي سنة كاملة قبل أن يحقق ما

يريد".

لقد قسم ابن حزم كتابه إلى ثلاثين باباً، أفرد الأخير منه "الفضل التعفف" والذي

يقول في مطلعته (15): من أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف" والبروفانسي دي فينتادور

يقول (16): "لا ضرر من الحب الذي سيبقى خلداً ما دام عفيفاً".

أما أندريه لوشابيلان فقد صنف كتاب "فن الحب" بعد أكثر من قرن من وفاة ابن

حزم وقد كرر فيه بعض ألفاظ ابن حزم في وصف تغير الحبيب القاسي إلى رجل وديع:

يقول ابن حزم (17): فكم بخيل جاد، وقطوب تالقي، وجبان تشجع وغليظ الطبع

تطرب وجاهل تأدب".

ويقول لوشابيلان (18): "إن الحب يحول الرجل القوي إلى وديع ظريف، ويرفع

الوضيع في النسب والخلق، ويجعل البخيل كريماً".

إن الأثر العذري كان جلياً في شعر الشعراء الجوالين من خلال تمجيد المرأة

وعشقها عشفاً "روحانياً" ظاهراً، وقد خير ابن حزم المرأة بسبب ثباتها بين النساء كما يقول:

"ولقد شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأنني تربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، وهن يعلمنني القرآن، ورويتني كثيرا من الأشعار، ودربنني في الخط".

فوفي هذا القول دلالة على مكانة المرأة الأندلسية، فقد ازدانت الأندلس بعدد غير قليل من العالمات، والشاعرات اللاتي أسهمن في إثراء الأدب الأندلسي بألوان طريفة من موضوعات الشعر، أذكر منهن شاعرتين من قرطبة أولاهما عائشة بنت أحمد القرطبية (ت سنة 400هـ)، التي ذكر المقرئ (19) "أنه لم يكن من حرائر الأندلس من يعدلها علما وفهما وأدبا وشعرا وفصاحة". وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف، ولم تكن وحيدة في هذا العمل، وإنما قيل "إن مئة وسبعين امرأة بضاحية قرطبة الشرقية يعملن يوميا في نقل نسخ من القرآن بالخط الكوفي". (20)

وثانيتهما ولادة بنت المستكفي (ت 474هـ) وقد قرن اسمها باسم ابن زيدون، شاعر قرطبة الأول (ولد سنة 394هـ/ 1003م)، وكان قصرها منتدى لأحرار العصر. وقد ترجمت عن مشاعرها بغزل رقيق يجمع بين الصبابة والشكوى فقالت بعد غيب زيارة ابن زيدون:

ألا هل لنا من بعد هذا التفريق	سبيل فيشكو كل صب بما لقي
وقد كنت أوفات التزاور في الشتا	أبيت على جمر من الشوق محرق
وكان ابن زيدون قد أودع نفسه وحبه وشعره، فقال حين ألم بالزهراء:	
اني ذكرك في الزهراء مشتاقا	والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله	كأنه رق لي فاعتل اشفاقا
ووصفها في قصيدة أخرى فقال:	
ربيب ملك كان الله أنشأه	مسكا وقدر إنشاء الورى طينا
أوصاغه ورقا محضا وتوجه	من ناصع التبر ابداعا وتزيينا

لقد جاء شعره يفيض بحياة عصره، وما كان فيه من خصب وترف، في قرطبة التي سطرت فصلا رائعا في تاريخ العصور الوسطى، بعد أن حملت مشعل الثقافة والمدنية الى العالم، فاستحقت لقب "جوهرة العالم"، و"درة المضيئة"، وقد فاخر بها القاضي أبو جعفر بن

الهوامش:

- 1- يطلق اسم الأندلس Al Andalus على الأرض التي وطئها العرب من إسبانية وكانت تسمى قاندايسيا واليوم تعرف باسم Andalucía أندلوثيا نسبة إلى قبائل القانداي التي نزلت إسبانية في القرن الخامس الميلادي، فحرفها العرب إلى الأندلس.
- 2- منهم المستعربون Los Mozarabes وهي العناصر المسيحية التي استعربت في لغتها، ولكنها بقيت محافظة على دينها (كان لهم رئيس يعرف بالقومس) Gomes وكاثوليك عماد الترجمة التي هي لغة العلم والحضارة في القرون الوسطى، وقد انتشرت مراكز الترجمة، وكان أول المهتمين بها ملك قشتالة في القرن الثالث عشر ألفونسو العاشر Alfonso X الذي يعرف بالحكيم أو العالم El sabio وقد أمر بترجمة القرآن الكريم، ومعراج الرسول، وكان لهذا أثر في ظهور الكوميديا الإلهية La Comedia Divina لدانتي Dante .
- 3- لعل أهم مظاهر انتشار اللغتين العجمية والعربية في الأندلس ظهور الموشحات والأزجال. على أن مبدع فن الموشح شاعر من قبيلة وبالإسبانية Gabra (في الجنوب الشرقي من قرطبة) اسمه مقدم بن معافى، وكان من شعراء الأمير الأموي عبد الله بن محمد.
- (ابن سناء الملك: "دار الطراز في عمل الموشحات"، مقدمة المحقق د. جودت الركابي).
- 4- كان في قرطبة سبع مئة مسجد، وثلاث مئة من الخمامات العامة، وسبعون مكتبة وحنوت تباع فيه الكتب، وثلاث عشرة ألف دار، وواحد وعشرون ريبضا (ضاحية). قد أمر عبد الرحمن الثالث ببناء (الزهراء) غربي قرطبة أرضاء لجارية له بهذا الاسم، كما بنى الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر مدينة (الزاهرة) شرقي قرطبة، وقد جلب اليهما الرخام من القسطنطينية، وكانت العمارة متصلة بين قرطبة وضاحيتها، يمشى فيها بضوء السراج هذه أميال (المقري: نفح الطيب 203/4).
- 5- إكتسب المسجد صفة الجامع من اجتماع المسلمين فيه لأداء الفريضة وبخاصة يوم الجمعة تطبقا لقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَنَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ". سورة الجمعة آية 9.

وهو يشف عن مثل من أروع أمثلة العمارة في القرون الوسطى بفضل ما تضمنه من ابتكارات في عناصره المعمارية التي التزمت عند التخطيط ملها بيت الصلاة أو المكان المسقوف الذي يخطف فيه المصلون، وقد التزم فيه نظام ازدواج العقود وتراكبها على طابقين وارتفاع القباب ليدخل الضوء الكافي، والصحن وهو الجزء غير المسقوف الذي يلي بيت الصلاة وأنشئت فيه النوافير، وغرست في لجنتاته أشجار البرتقال، والمجنبات وهي الأروقة المسقوفة على ارتفاعات شاهقة، والمنبر الذي يقام بجانب المحراب ليقف عليه الإمام وهو يخطب صنع من الأبنوس بدلا من الخشب العادي، والمعدنة التي استخدم في أغلبها الشكل المربع، أما المحراب بل هو الرئيسي مزين بالآيات القرآنية والرسوم النباتية، وتبقى المقصورة، وهي حجرة خشبي يحدد جزءا من الضفوف الأولى في بيت الصلاة وكانت تخصص للأمير أو الخليفة وحاشيته وكبار رجال الدولة.

6- لقبه أبو جعفر المنصور بصقر قریش لقوته وجراته، وقد عرض أحمد شوقي لسيرة الخليفة الداخل في موشحته بصقر قريش فقال:

صقر قريش منعوه جلقا * فطار في قرطبة وحلقيا به زارعا

أشيا ملكا أمويا ضخما * كملك كسرى رتبة ونجما

(دور العرب وعظماء الاسلام ص 77)

- 7- إليه يعود الفضل في تنظيم قرطبة على المثال العباسي، فقد صنع دارا للنقود ودارا لـ استعمال الخاتم الرسمي، وأسس دار للطراز، وأسس دارا للخطابة.
- 8- أول من تسمى من أمراء الأمويين بالأندلس "بالخليفة"، و"أمير المؤمنين"، وقد منع الظفر على الثوار، وكانت له في جهاد العدو الجديد البيضاء، جلد غزواته شاعر قرطبة الأديب أحمد بن عبد ربه (ت 828هـ) في أرجوزته التاريخية (العقد الفريد) الجزء الخامس (وقد وفدت على بلاطه الفخم رسل القسطنطينية وأوروبية، وهذا دليل الامتياز الذي حصلت عليه الدولة الأموية في نظر أوروبية المسيحية في الشرق والغرب).
- 9- الفسيفساء Mosaico هي قطع صغار ملونة من الرخام أو الفخياء أو الخزف أو نحوها، يظم بعضها إلى بعض فيتكون منها صور ورسوم تزين الأرضي والجدران، وقد حرص المسلمون على أن تكون زخارفها وصورها هندسية أو أشكالاً نباتية.

10- ابن عذارى، البيان المغرب، دار الثقافة بيروت 83. 241/2.

11- المقرئ، نفح الطيب 88/2.

12- ذكر المقرئ في نفح الطيب أنه كان في بيت المنبر مصحف عثمان رضي الله عنه، وكان قد خط بيده نسخا أرسلها إلى الأمصار، وربما نقل من الشام إلى الأندلس، وعليه أغشية الديباج وحلية الذهب مكللة بالدر والياقوت، وهو على كرسي من العود الرطب المثبت بمسامير الذهب، وقد آل المصنف إلى الموحدين ثم إلى بني مرين في مراكش.

13- أزيلت القباب القديمة عدا القبة الرئيسية الوسطى التي تظل الهيكل الرئيسي الذي أنشئ في وسطه، وأنشئت على طول جوانب الجامع الأربعة في الداخل هياكل كثيرة نصبت فوقها الصليبان وتمائيل القديسين وصورهم، وأزيلت المنارة وأقيم فوق أنقاضها برج الأجراس أو برج النواقيس، وارتفاعه ثلاثون مترا.

14- التروبادور هم شعراء العصور الوسطى الأوروبية ظهوروا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي في جنوب فرنسا ووسطها وعاشوا في بلاط الأمراء والملوك يتغنون بالحب، وقد يكون التروبادور ملكا أو أميراً، يطلق عليهم بالإسبانية Trovador تروقادور، وبالفرنسية Troubadour تروبادور، إن ورد في لغة الجنوب Trouvers، تروبير إن ورد في لغة الشمال.

وهناك طائفة من المنشدين حوغلارس Juglares بالإسبانية، وجونكلير Jongler بالفرنسية يسلون الناس بالغناء والرقص، وحكاية قصص البطولة وهم من العامة.

15- طوق الحمامة ص 143.

16- مريم بغدادية- شعراء التروبادور ص 29.

17- طوق الحمامة ص 13.

18- شعراء التروبادور ص 27.

19- نفح الطيب 26/2.

20- أ. ليفي بروفنسال "إسبانية المسلمة في القرن العاشر" ص 233.

الدكتور عبد الحميد حاجيات

**تلمسان مركز الإشعاع الثقافي
في المغرب الأوسط**

معهد الثقافة الشعبية
جامعة تلمسان
الجزائر